

المحولجي

قصة للكاتب المكسيكي

جوان أريولا

ترجمها عن الألمانية

ابراهيم وطفى

متقطع الأنفاس بلغ الغريب المحطة المهجورة. وإذا لم يشأ أحد أن يحمل له حقيبته الضخمة، وجب عليه أن يجرها وراءه تعباً. مسح وجهه بمنديله، ظلل عينيه باليد، وراح يتأمل خط القضبان الحديدية، الذي ضاع في الأفق. بشرود ويأس سأل ساعته، التي كانت عقاربها تشير إلى الوقت، الذي كان ينبغي فيه على القطار أن ينطلق. فجأة تلقى صدمة خفيفة، من مجهول كان قد ظهر في مكان ما. وإذا أدار نفسه، لمح أمامه عجوزاً صغيراً، بدا عليه أنه أحد موظفي المحطة. وكان العجوز يحمل في يده فانوساً ضئيلاً يشبه لعبة.

مبتسماً تأمل الرجل الغريب، الذي سأل قلقاً:

- «المعذرة! هل انطلق القطار؟»

- «لا شك أنك جديد في بلدنا؟»

- «علي أن أسافر بأسرع ما يمكن. علي أن أكون غداً في ت...»

- «ألاحظ أنك لا تدرك كيف تسير الأمور لدينا. إن أول ما ينبغي عليك القيام به، هو أن تبحث لنفسك عن غرفة في فندق الغرباء...» وأشار إلى بناء رمادي، غريب الشكل، بدا وكأنه سجن.

- «ولكنني لا أبغي البتة أن أمضي ليلتي هنا. إنني أريد أن أسافر.»

- «من الأفضل لك أن تستأجر، على الفور، غرفة. هذا إذا كانت إحداها ما زالت شاغرة. وإذا تمكنت من الحصول على غرفة، فمن الأفضل لك أن تستأجرها لشهر كامل، حيث سيكلفك هذا أقل، وستجد خدمة أفضل.»

- «هل جننت؟ علي أن أكون غداً في ت... مهما كانت الظروف.»
- «إذن سأتركك إلى قدرك. ومع هذا سأعطيك بعض المعلومات...»
- «أرجوك.»

- بلادنا مشهورة، كما تعلم، بخطوطها الحديدية. وفي الحقيقة لم يكن بالإمكان حتى الآن، تنظيم المرور لدينا بشكل صحيح. لكن ثمة كثير من الأمور الهامة قد نظمت، مثل نشر جداول مواعيد السفر، وتسليم تذاكر السفر. وجداول مواعيد السفر تبين وجود شبكة خطوط حديدية كثيفة في سائر مناطق البلاد. وتصرف التذاكر إلى أصغر القرى وأكثرها بعداً. ولكن كان على القطارات أن تحافظ على البيانات الواردة في جداول مواعيد السفر فحسب، وأن تقترب، فعلاً، من المحطات المبنية. لكن هنا تتجلى الصعوبة. ومازال مواطنو بلادنا ينتظرون. ولكنهم يتقبلون، في غضون ذلك، عدم الانتظام، وتمتعهم وطنيتهم من التفوه بأية عبارة استنكار.»

- «وهل سيمر أي قطار من هنا؟»

- «سأرتكب خطأ في الدقة، فيما لو أجبتك بالإيجاب. كما ترى، ثمة أرصفة هنا، وإن كانت متعطلة بعض الشيء. وفي أماكن أخرى، استعوض عنها بخطين من الطباشير، رسماً، بكل بساطة، على الأرض. وكما هي الحالة اليوم، فليس من الواجب على أي قطار أن يمر من هنا، ولكن ما من ثمة شيء يمنع حدوث ذلك. لقد شاهدت في حياتي كثيراً من القطارات تمر من هنا، وكذلك إنني أعرف بعض المسافرين، الذين صعّدوا إليها. وربما سيكون لي الشرف، أن أساعدك في الصعود إلى إحدى العربات الجميلة، المريحة، إذا انتظرت زمناً كافياً.»

- ولكن هل سيصل بي القطار، بعد ذلك، إلى ت...؟»

- «ولكن لماذا تشبث هكذا ب ت...؟ عليك أن تكون مسروراً، فيما لو صعّدت، فحسب، إلى القطار. وعندما تصعد، مرة، إلى قطار، فسوف ينطلق، بكل تأكيد، باتجاه ما. وما هو الفرق، إذا لم يكن الاتجاه نحو ت...؟»

- «لكنني أملك تذكرة نظامية إلى ت... ومن المنطقي أن أسافر بها أيضاً إلى ت... ، أليس كذلك؟»

- «كل سيقول إنك على حق. بإمكانك، في فندق الغرباء، أن تتحدث مع أناس اتخذوا إجراءاتهم الاحتياطية، بأن استحضروا كومة من تذاكر السفر بصورة عامة، يشتري الناس الحذرون تذاكر لجميع المحطات في البلد. وثمة فريق منهم أنفق ثروات من أجل التذاكر...»

- «لقد ظننت أن المرء لا يحتاج سوى إلى تذكرة، لكي يصل إلى ت... وهذه هي تذكرتي...»

- «إن المرحلة التالية من الخطوط الحديدية تبنى من مال رجل واحد، كان قد أنفق كامل ثروته في شراء تذاكر على خط حديدي، لم يكن المهندسون قد وافقوا بعد على مشروع بنائه، بأنفاقه الضخمة وجسوره.»

- «لكن القطار إلى ت... هل يسير؟»

- «ليس هذا فحسب! ثمة قطارات عديدة تسير، وبإمكان المسافرين أيضاً، أن يستخدموها غالباً. ولكن بشرط، ألا يكون ذلك حسب جدول سفر رسمي ثابت. وبكلمة أخرى؛ عندما تصعد إلى قطار، فليس عليك أن تتوقع، أن ينقلك إلى حيث تريد.»

- «ماذا يعني هذا؟»

- «لقد لجأت شركة الخطوط الحديدية إلى أساليب يائسة، لمساعدة المواطنين. إنها تسير قطارات إلى مناطق مجهولة. وتحتاج قطارات الاستكشاف هذه، أحياناً، إلى سنوات عديدة، لكي تقطع مثل هذه المسافات. وعلى المسافرين أن يبدلوا كامل نمط حياتهم. وليست حوادث الموت، طبعاً، بالأمر النادر. لكن الشركة فكرت بكل صغيرة وكبيرة، فقد ألحقت بكل قطار، عربة خاصة كمقبرة، وعربة أخرى كمحرقة لأجساد الموتى. وإنه لأمر يدعو لفخر كل كمساري، إذا ما تمكن من أن يغسل، بكل عناية، جثة أحد المسافرين، وأن يضعها على رصيف تلك المحطات المذكورة على تذكرة السفر. في كثير من الأحيان تسير هذه القطارات على قضيب واحد. إن نصف العربة يهتز بشكل مرعب، عندما تهتز العجلات فوق الفلكنات العارية. ولكن أيضاً في هذه الحالة رعاية الشركة؛ إن جميع ركاب الدرجة الأولى يجلسون في الجهة التي تقع فيها القضبان.»

وباستسلام يتحمل ركاب الدرجة الثانية الصدمات. وهناك خطوط تفتقر إلى كلا القضيبين. وفي هذه الحالة يجب على ركاب الدرجتين أن يقاسوا، حتى يتحطم القطار نهائياً.»

- «يا إرادة الله!»

- «في حادث كهذا، نشأت قرية ف... وصل القطار إلى منطقة شديدة الوعورة، حيث غرقت عجلاته. وكان المسافرون قد أمضوا وقتاً كافياً مع بعضهم، حيث نشأت من المحادثات العادية، صداقات ثابتة. وقد تطورت بعض تلك الصداقات إلى علاقات مثالية. ومن هنا أصبحت قرية متقدمة، مليئة بالأطفال المتوحشين، الذين يلعبون ببقايا القطار الصدئة.»

- «يا إرادة السماء! أنا لا أصلح لمثل هذه المغامرات.»

- «إذن عليك أن تغير نفسك. ربما ستصبح، يوماً ما، بطلاً. لا تظن أنه لا تنقصنا الفرص التي يمكن فيها للمسافرين أن يبرهنوا على قدرتهم على التضحية.»

إن الصفحات الناصعة في تاريخ خطوطنا الحديدية تخبرنا عن قصة ممتين من المسافرين المجهولين. لقد اكتشف سائق القاطرة، في إحدى سفرات التجربة، خطيئة إهمال لدى البناء، الذي نسي أن يبني جسراً فوق هاوية. وبدلاً من أن يعود، ألقى السائق خطاباً في المسافرين، الذين شجعوه، ألا يتراجع عن هدفه الجريء. وقد فكك القطار، تحت قيادته الجريئة، قطعة قطعة، وحمل، عبر الهاوية، على الأكتاف. وفوق ذلك كان ثمة نهر غزير يجري في الوادي. وكان أثر هذا العمل البطولي كبيراً، بحيث امتنعت الشركة، نهائياً عن بناء الجسور. ومقابل ذلك وعدت بتخفيض ثمن تذاكر السفر، لأولئك الذين يجرؤون على تقبل هذه الإزعاجات الجديدة.»

- «ولكن عليّ أن أكون غداً في ت...»

- «حسناً! حسناً! يعجبني أنك لا تريد أن تتنازل عن هدفك. ألاحظ أنك رجل مبادئ. استأجر لنفسك حجرة في الفندق، وسافر في أول قطار يمر من هنا. فلتجرب ذلك على الأقل، وسيحاول ألف إنسان على الأقل، أن يمنعك من ذلك. إذ إنه عندما يصل أحد القطارات، يندفع المسافرون اليائسون من طول الانتظار، ويتزاحمون صاحبين

على الرصيف. وكم من الحوادث تقع، لنقص اللياقة والتواضع. فبدلاً من الصعود بانتظام، يتعلق الناس بأذيال بعضهم، وبذلك يزيدون من صعوبة الصعود، وينطلق القطار، بعد أن يتركهم مكومين على الرصيف، حانقين، منهكين، حيث يمضون معظم الوقت في تبادل الشتائم والضربات.»

- «ولا تتدخل الشرطة؟»

- «لقد تقرر توزيع فرقة شرطة لكل محطة. لكن عدم انتظام وصول القطارات، جعل الأمر مستحيلاً وغالباً لأقصى درجة. وبالإضافة إلى ذلك انتشرت الرشوة بين أفراد فرقة الشرطة، بحيث لم يعودوا يكثرثون سوى إلى تأمين سفر المسافرين الأثرياء، الذين كانوا يعطونهم مقابل ذلك، كل ما كانوا يحملونه. وقد أنشئت مدرسة، يتلقى فيها المسافرون دروساً في السلوك الاجتماعي، وتمريناً مناسباً، من شأنه أن يسهل عليهم الحياة في القطار. وفي تلك المدرسة يتعلم المسافرون كيفية القفز إلى القطار وهو منطلق بسرعة. وكذلك يؤمن لهم نوع من التسليح، لكي لا يحطم لهم زملائهم في السفر، ضلوعهم.»

- «لكن عندما يكون المرء في داخل القطار، فإنه يتخلص من كافة الصعوبات؟»

- «تقريباً. ولكنني أنصحك أن تنظر إلى المواقف بدقة، حيث إن من الممكن أن يحدث، أن تظن أنك قد وصلت إلى ت... ولكن ذلك كان غلطة.

وقد لجأت الشركة إلى وسائل معينة، لحل مشكلة العربات المليئة، فهناك ثمة محطات صورية، بنيت وسط القفر، وحملت أسماء بعض المدن الهامة. ولكن ليس على المرء سوى أن ينتبه بعض الشيء، فيكتشف الخدعة. إنها مجرد مناظر مسرحية، والناس الذين يطوفون، هم شخوص ملئت بنشارة الخشب. وتعاني هذه الدمى تحت وطأة المناخ. ولكن غالباً ما تقترب من الواقع، حيث ينطبع على وجهها تعبير إنهاك لا نهائي.»

- «من حسن الحظ، أن ت.. ليست بعيدة جداً من هنا.»

- «ولكن لا توجد، في هذه اللحظة، قطارات إلى هناك. من الممكن، أن تكون فعلاً غداً، كما ترغب، في ت... إن تنظيم خطوطنا الحديدية، وإن كان لا يخلو من

مساوئ، لا يستبعد إتمام سفرة من دون حوادث طارئة. هل ترى؟ ثمة أناس لم يلحظوا مرة، كيف تسير الأمور. يصعدون إلى القطار، وفي الصباح التالي يسمعون. لقد وصلنا إلى ت.. ودون أن يكون لديهم أية فكرة، ينزل هؤلاء الناس، ويكونون فعلاً في ت..»
- «هل بإمكانني أن أفعل شيئاً، لكي يحدث معي مثل هذا؟»

- «بالتأكيد يمكنك ذلك. ولكن ليس من المؤكد، فيما إذا كان هذا سيفيدك. بإمكانك مع ذلك أن تجرب الأمر. اصعد إلى القطار، ولتكن مقتنعاً تمام الاقتناع، أنك ستصل إلى ت... لا تتحدث مع أحد. بإمكان المسافرين الآخرين، بواسطة تجارب رحلاتهم، أن يثبطوا همته. حتى إن بإمكانهم أن يشوا بك.»
- «ماذا، ماذا تقول؟»

- «نظراً إلى الموقف الراهن، فإن القطارات مليئة بالخرين البوليسيين. هؤلاء الخربون، المتطوعون غالباً، يكسرون كامل قواهم، لتكوين فكر معلوم في شركة الخطوط الحديدية. وأحياناً لا يعرف المرء نفسه، ماذا يتحدث، ويتكلم لمجرد الكلام. لكن هؤلاء الناس يلمحون، على الفور، كل التفسيرات الممكنة، التي يمكن أن تأخذها أية جملة بسيطة. وفي مقدورهم أن يستخلصوا من أكثر الملاحظات براءة، تصريحاً يعرض صاحبه للعقوبة. وإذا لم تكن حذراً إلى أقصى درجات الحذر، فسوف يلقي القبض عليك، على التو. وفي هذه الحالة سيترتب عليك أن تمضي بقية حياتك في عربة سجن، أو ستجبر على النزول في محطة صورية، في وسط القفر. فلتسافر وأنت مليء بالإيمان! وعليك ألا تأكل سوى القليل! ولا تطأ قدماك أي رصيف، قبل أن تكتشف في ت.. وجهاً تعرفه!»

- «لكنني لا أعرف أحداً في ت...»

- «في هذه الحالة عليك أن تضاعف إجراءات الحيلة. إنني أؤكد لك، أن ثمة إغواءات كثيرة في الطريق. فمثلاً عندما تنظر من النافذة، يمكنك، من دون مقدمات، أن تقع فريسة السراب، إن النوافذ مجهزة بأجهزة معقدة، تثير في أذهان المسافرين مختلف أنواع التصورات. وليس المرء بحاجة لأن يكون ضعيف الإرادة بشكل خاص، لكي يقع في المصيدة. يوجد في القطار أجهزة تدع المرء يظن أن القطار يتحرك. ولكنه

غالباً ما يظل، في الواقع، ولمدة أسابيع، دون حراك في موضع واحد، بينما يتمتع المسافرون بالمناظر الطبيعية الخلابة التي تمر على النوافذ.»

- «ولم كل هذا؟»

- «هذا كله تخيلته الشركة من وجهة النظر السليمة، القائلة، إن من الممكن التقليل من قلق المسافرين، وعلى كل حال تجنب تغيير القطار. وأحب شيء لديها أن يثق البشر، يوماً ما، ثقة عمياء بقيادة قادرة على كل شيء، وأن يتساوى لديهم، إلى أين يسافرون ومن أين يأتون.»

- «وأنت؟ هل سافرت كثيراً في هذه القطارات؟»

- «أنا محوّلجي فحسب، أيها السيد^(*). وبكلمة أصبح؛ محوّلجي متقاعد، وأتي أحياناً إلى هنا، لكي أتذكر الأيام الطيبة السالفة. إنني لم أسافر البتة، وليست بي رغبة في ذلك. لكن المسافرين يروون لي تجاربهم. وأعرف أن شركة الخطوط الحديدية قد ساعدت في تأسيس قرى أخرى غير ف..، تلك القرية التي حدثتك عنها. ويحدث أحياناً أن يتلقى موظفو إحدى القطارات أوامر سرية. بعدها يطلبون من المسافرين أن يغادروا القطار، غالباً بحجة أن عليهم أن يتمتعوا بجمال الطبيعة. ويحدثونهم عن كهوف وشلالات وآثار شهيرة. خمس عشرة دقيقة توقف، لكي تتمكنوا من الاستمتاع بمغارة كذا وكذا. ينادي الكمساري بلطف. وإذا يتعد المسافرون مسافة معينة من القطار، يقلع هذا بأقصى سرعة.»

- «والركاب؟»

- «يتوهون يائسين، فترة من الزمن، ولكنهم في النهاية، يجتمعون ويؤسسون مستعمرة. وينفذ مثل هذا النوع من التوقف، في مواضيع متوحدة جداً، معينة سابقاً، وبعيدة عن كل حضارة، ولكن على بقعة خصبة من الأرض. هناك تترك مجموعة منتقاة، غالباً من الشبان، وقبل كل شيء عدد كاف من النساء. ألن يعجبك إذن، أن تختم أيامك في مكان مجهول، خلاب، مع فتاة جميلة؟»

(*) عامل في السكة الحديدية كان يقوم سابقاً على خدمة تحويلات السكة باليد كي ينتقل القطار من رصيف إلى آخر دون توقف.

غمز العجوز بعينه، ورمق الغريب بشقوة، ضاحكاً بطيبة.
وسمع في تلك اللحظة صغيراً بعيداً.
بلعط المحولجي، متهيجاً، ذهاباً وإياباً، وراح يشير بمصباحه إشارات مضحكة لا
معنى لها

- «هل هذا هو القطار؟» سأل الغريب.
ركض العجوز مسرعاً، وإذ ابتعد بعض الشيء. أدار نفسه وصرخ:
- «إنك محظوظ، سوف تصل غداً إلى المكان المشهور الذي تقصده. ماذا؟
- «س...» أجاب المسافر.
واختفى العجوز فجأة في هواء الصباح النقي. وجرى ضوء مصباحه الأحمر فوق
القضبان كالموسوس، باتجاه القطار.
ومن خلفية الريف اقترب القطار مثل أعجوبة صاحبة.